تاريخ المطابع من أول نشأتها

﴿ لحضرة الاصولي البارع على أفندى أبوالفتوح ﴾

(من وكلاء النائب العمومي)

الطبع لفظة عربية مشتقة من طبع يطبع طبعاً أي ختم وفى لسان العرب : « الطبع الختم وهو التأثير فى الطين ونحوه والطابع (بفتح الباء وكسرها) الختم » وقال أبو اسحق النحوى « طبع وختم فى اللغة واحد »

ولما اخترعت الطرق الفنية لكتابة الكتب كما سنشرحه بعد أطلقت لفظة الطبع على هذه الطرق لقربها من معناها الاصلى وقيل طبع الكتاب أي كتب بواسطة احدى طرق الطبع وسمي المحل الذي تطبع فيه الكتب مطبعة

وقد كان لهذه الاختراعات شأن مهم ودور عظيم فى ارتقاء بنى الانسان وواسطة كبرى لخدمة الافكار وانتشار العلوم والمعارف بين افراد الامم اذ قبل وجود المطابع كانت الكتب نادرة الوجود ولا يقتنيها الا بعض الموسرين لما كانت تتكلفه من الاثمان الباهظة والاوقات الثمينة من أجرة نساخ وثمن ورق أو جلد وأجرة مجلد ونحو ذلك

أما اليوم فأصبح كل انسان يمكنه أن يحصل على الكتب التى يريدها ببذل القليل من المال وأصبح الكتاب الذى كان ينتفع به العدد اليسير من الناس منتشرا بين أيدى الالوف ينتفعون به ويقتبسون من أنواره .

ولا حاجة للاطناب فى هذا المعنى فجميع القراء يعلمون فوائد المطابع وثمرات اختراعها مما لا حاجة بهم الى تفصيله . ولكن أبى الله الا أن يكون لكل شيء منافع ومضار والمطابع كغيرها من الاشياء منافعها كثيرة ومضارها ليست بالقليلة كما سنبينه فى آخر هذا المبحث . ولنتكلم الآن على

تاريخ هذه المطابع وكيف وجدت وما أدخل عليها من التحسينات من أول ظهورها الى وقتناهذا مراعين فى ذلك الاعتماد على أوثق المصادر وأصدق الروايات جانحين الي اجتناب التطويل الممل والايجاز المخل فنقول :

الطبع اصطلاحا هو كتابة حروف أو رسومات على الورق بواسطة الضغط والطبع بآلة مخصوصة. والمطابع ثلاث

أولا — مطبعة الحروف والمراد منها كتابة الكتب وما أشبهها على الورق

ثانياً — مطبعة الحفر والمراد منها نقل الرسومات على الورق

ثالثاً — مطبعة الحجر وهي مشتركة بين الاثنين لانها تنقل الحروف والرسوم

وهناك طريقة أخري مشابهة للاخيرة للرسم على المنسوجات وهى التى يعبر عنها بالبصمة وليست هى من موضوع بحثنا هذا

ومن الامور الثابتة هو ان مطبعة الحفر اخترعت قبل مطبعة الحروف وكانت سلما موصلا لاختراعها

ومن الامور الثابتة أيضاً هو أن فن الطبع كان معلوماً عند القدماء فالمصريون والاشوريون ثم بعدهم اليونان والرومان كانوا ينقشون الحروف بارزة أو مجوفة ثم يطبعونها على البردى أو على الرق المتخذ من الجلود بواسطة الضغط وبواسطة استعمال مادة رطبة ملونة أو بدون استعمال مادة وبواسطة الضغط أيضاً على ألواح مصنوعة من الشمع

وقد أثبتت الابحاث العلمية التي حصلت على الآثارات الصينية أن الصينيين منذ سنة ٩٢٣ بعد الميلاد (وربما صح القول بأنه منذ القرن الرابع

بعد الميلاد) كانوا قد اخترعوا فن نقش الحروف بارزة على قطع من الخشب ثم على قطع من المعدن وانهم كانوا يضعون فوق هذه الحروف البارزة مدادا لزجا ويطبعون كتبهم بهذه الطريقة على الورق . وهـذه هى طريقـة النقش على الخشب ومن المعلوم ان الورق المتخذ من القطن اخترعه الصينيون في سنة ١٨٠ قبل الميلاد

ولم تستعمل هذه الطريقـة في أوروبا الا فى القرن الرابع عشر ويؤكد كثير من المؤرخين أن هذه الطريقة استعملت فى بادىء أمرها لطبع الكوتشينة المعلومة عند جميع القراء وكان الاصل في هذا الورق أن ترسم وتلون كل واحدة منه على حدتها باليد ويوجد بفرانسا جملة أوراق محفوظة لغاية اليوم من صنع الرسيم { چاكمان جرنجونير } الذي كان أعدها لكارلس السادس ملك فرنسا فى سنة ١٣٩٢ ميلادية ولا يخفى أن هذه الطريقة كانت تستدعى مصاريف كثيرة وتستغرق زمنا مديدا فافتكر بعضهم في أن يرسمها بواسطة قوالب مخرقة مثل التى تستعمل اليوم لطبع النمر والاعـلانات الملونة ثم ترقي فى العمل فرسمت كل ورقة على لوحة من الخشب الصلب على هيئة بروز ثم وضع مداد لزج على هذه البروز وطبعت الاوراق على هذه الصفة ثم استعملت هذه الطريقـة لطبع الصور الدينيـة ثم نقش مع الصور بعض كلمات ثم نقشت ألواح كلها كلمات

ومن هذا يثبت أن طريقة الحفر على الخشب بعد أن اخترعت فى بلاد الصين اخترعت مرة أخري فى بلاد أوروبا ولكن الصينيين لا يزالون يستعملون هذه الطريقة لغاية اليوم في طبع كتبهم مع استعمال الطرق الاخرى المستحدثة وذلك لموافقتها وسهولتها بالنسبة لشكل حروفهم وأما الاوربيون فانهم

لا يستعملون هذه الطريقة الآن الا فى طبع الرسومات وأما طبع الكتب فيستعملون له مطبعة الحروف التى اخترعوها فيما بعد

والذى تجب ملاحظته هو ان الطبع فى القرن الرابع عشر من الميلاد كان يتم بدون استعمال المكبس والسبب في ذلك بسيط جداً وهو أن هذه الآلة لم تكن اخترعت فى ذلك العهد وانما كانت توضع الورقة فوق البروز الموجودة فى اللوحة الخشبية بعد ان تغطى هذه البروز بالحبر ثم يضغط على الورقة بواسطة اسطوانة من الخشب مغطاة بجوخ حتى ينطبع ما على الخشب فى الورق

وبهذه الطريقة طبعت التوراة فى سنة ١٤٢٠ م في مدينة بامابرج من أعمال باڤاريا بالمانيا وهذه هي التوراة التى دعوها بتوراة الفقراء وهي عبارة عن ملخص الكتاب المقدس ويوجد منها بعض نسخ لغاية اليوم

وأغلب الكتب التى طبعت على هذا المنوال ظهرت فى المانيا وهولاندا وأكثرها اما كتب دينية عنوانها « مرآة السلام » (١) أو كتب مشتملة على ملخصات من أجرومية المؤلف اللاتينى (اليوس دوناتيس) وموسومة من أجل ذلك باسم « دونات »

وفى النصف الاول من القرن الخامس عشر ظهر اختراع مهم وهو اختراع الحروف المنفصلة التى يمكن وضعها بجوار بعضها بحيث تتركب منها الكلمات ثم الصحائف على حسب الاحتياج وضرورة الطبع بحيث ان كمية معلومة من هذه الحروف والارقام يمكن استعمالها في طبع جملة كتب بالتوالي لانه عند انتهاء كل صحيفة أو كل كتاب يمكن فك الحروف وتركيبها بصفة أخرى لطبع صحيفة أو كتاب ثان .

(١) Speculum humand Salvationis

فهذه هى مطبعة الحروف أو المطبعة بدون وصف آخر .

وفي العهد نفسه تم اختراع مكبس الطباعة وبهذين الاختراعين تم هذا الفن وانتظم ووجدت بذلك فكرة الانسان قوة عظيمة يمكن بها الانتشار بكيفية لم تكن فى الحسبان

ولكن لاي انسان فى العالم يمكننا أن ننسب شرف هذا الاختراع العجيب الذى أفاد العالم فائدة عظيمة ؟

بحث العلماء كثيرا فى هذه المسئلة وبعد كل عناء ونصب لم يتمكنوا من الجواب على هذا السؤال بصفة قطعية لايشوبها أدنى ريب ولا يتخللها أي شك

ولننظر الآن مع مراعاة الاختصار الي أقوالهم في هذا الموضوع فنقول

كثرت الابحاث وتشعبت الروايات حتى ان خمس عشرة مدينة تدعي كل واحدة منهن بأنها كانت المهد الذى نشأ فيه فن الطباعة ولاعجب فى ذلك فالاختراع جليل وكل واحدة منهن تحب أن يكون لها الفخر والسودد بنسبة اختراعه لها

ومما نذكره على سبيل الفكاهة في هذا الباب هو أن أحد علماء (ماينس) المدعو « بودمات » اتهمه أهل بلده بأنه قد أهمل فى واجباته لانه لم يكتشف مستندات جديدة تثبت أن مخترع فن الطباعة هو جوتنبرج المولود فى هذه المدينة فما كان من هذا العالم الا انه زور مستندات من عنده تؤيد دعوي ان جوتنبرج هو أول مخترع لهذا الفن وقد اغتر بها كثير من المؤرخين

وذلك يثبت للقراء ماهي درجة اجتهاد العلماء في معرفة أصل نشأة الطباعة ومن هو مخترعها الحقيقى

وللوصول الى هذه الغاية قد سلكوا طريقين أولهما أساسه الاعتماد على شهادة

المعاصرين للاختراع أو المؤرخين المشهور عنهم صحة الاسناد والطريق الثانى أساسه فحص الكتب التى طبعت فى أول اختراع المطابع لمعرفة طابعها وتاريخ طبعها ومن المعلوم أن هذا الطريق الاخير لا يوصل بسرعة الي نتيجة قاطعة لانه صعب المسلك لا سيما وان أصحاب المطابع في تلك الاعصر الخالية كانوا يجتهدون فى اعطاء الكتب التى يطبعونها شكل كتب النسخ لان الاهالى كانوا يألفونها وكانوا يقولون على المطابع انها من آلات السحر ولذلك كانوا لا يكتبون عليها أسماءهم ولا تاريخ الطبع ولا البلد التى طبع فيها الكتاب كما يفعلون الآن

والابحاث العلمية لغاية اليوم قد وصلت الى جملة روايات ضعيفة وبقى النزاع قائما بين (جوتنبرج) من « ماينس » وبين (چان كوستير) من « هارليم » بهولاندا ولا بأس بالاتيان على شيء من تاريخ حياتهما .

أما جوتنبرج فولد فى ماينس سنة ١٤٠٠ م تقريباً وفي سنة ١٤٢٠ حصلت ثورة فى بلده فاضطر أن يهاجر منها الي مدينة ستراسبورغ وفى سنة ١٤٣٩ دافع عن نفسه في قضية لها أهمية كبرى بالنسبة لتاريخه لان التفصيلات الموجودة فيها قد وصلت الينا وهي أهم المعلومات التى يمكن الرجوع اليها . وموضوعها ان جوتنبرج كان عقد شركة مع ثلاثة أشخاص آخرين لاجل استغلال بعض الطرق والاعمال السرية فلما مات أحد الشركاء المدعو (اندريه وريتزهن) أراد ورثته أن يحلوا محله فى الشركة فأبى عليهم جوتنبرج ذلك فرفعوا قضية ضده وطلبوا فيها أما دخولهم فى الشركة أو استرداد مادفعه مورثهم وقد رفضت المحكمة دعواهم بعد أن سمعت شهوداً عديدين محفوظة شهاداتهم اليوم .

والذي يؤخذ من مجموع هذه الشهادات هو ان المكبس كان معروفا عند جوتنبرج وان الحروف المتفرقة كانت معروفة عنده أيضاً ولكن يظهر ان هذه الشركة لم تنتج شيئاً اذ لغاية الآن لم يقف العلماء على كتاب تم طبعه في مدينة سترا سبورغ

ثم انتقل جوتنبرج الي (ماينس) وفى سنة ١٤٥٠ عقد شركة مع أحد الماليين المدعو فوست ليتسني له ان يستمر فى عمله وكان المالى يعطيه النقود بسعر ٦٪ وفى سنة ١٤٥٥ لم يمكنه دفع الذى عليه فرفع عليه فوست قضية واكتسبها وأخذ جميع المدد والآلات التى عنده نظير استحقاقه

ولكن هذه الخسائر العظمى لم تقعد همة جوتنبرج عن السعي وراء تحسين اختراعه فانه استمر على العمل بمساعدة أحد أقربائه ثم عقد شركة مع الدكتور {كوزاد هومرى} ومثبوت أنه كان يطبع فى سنة ١٤٥٩ ثلاثمائة فرخ من الورق كل يوم ومع ذلك فكان الفقر دائما واضعا رحاله فى منزله غير انه كان بالرغم عن هذا معتبرا بين قومه ومحترما عند الجميع ومات في ماينس فى فبراير سنة ١٤٦٨

أما جان كوستير فجميع مايتعلق به وارد فى كتاب اسمه (بلافيا) تأليف {أردبان دي جونج} فى سنة ١٥٦٥ وقد طبع هذا الكتاب بعد موت مؤلفه سنة ١٥٨٨ فى مدينة (ليد) بهولاندا وأما مؤلفه فمات في ١٠ يونيه سنة ١٥٧٥ وقد جاء فيه مايأتى «ان المخترع لفن الطباعة هو جان كوستير من مدينة هارليم وذلك انه كان يتنزه فى الغابات المجاورة للبلد يوماً من الايام فخطرت بباله فكرة عظيمة وهى انه أخذ قشوراً من الشجر وصار ينقش عليها حروفا ثم يطبعها على الورق بجوار بعضها ويكون منها كلمات مشتملة على نصائح لاولاده ثم أراد

أن يعمل عملاً أفيد فاخترع مداداً لزجاً لانه لاحظ أن المداد العادي ينتشر كثيراً على الورق ثم طبع رسومات وكلمات بهذه الواسطة وقد رأيت كتابا اسمه «مرآة السلام» مطبوعا بهذه الطريقة على وجه واحد من كل ورقة وأما الوجه الآخر منها فأبيض وملصوق بالصحيفة التي بعدها لعدم ظهور هذا العيب.

وبعد ذلك صنع الحروف من رصاص بدل الخشب ثم من قصدير ليكون أكثر صلابة ومتانة ولما كثر عليه العمل انضم اليه بعض المساعدين الاجانب وكان ذلك سبب الضرر لانه كان بين هؤلاء الاجانب شخص اسمه جان وأظنه جان فوست بعد أن أتقن فن الطباعة اغتنم فرصة اشتغال زملائه في قداس ليلة الميلاد ودخل مخزن الحروف وأخذ منه ماطاب له من الآلات والعدد التي اخترعها استاذه ثم ذهب ومعه المسروقات الي مدينة «امستردام» ومنها الى كولونيا فمدينة ماينس. وفي السنة التالية للسنة التي حصلت فيها السرقة أي سنة ١٤٤٢ ظهرت في ماينس كتب مطبوعة بنفس الحروف التي كان يستعملها كوستير وبذلك نسب بعضهم خطأ شرف اختراع فن الطباعة الي من لايستحقونه» اهـ ملخصاً

فاذا سلمنا بجميع ماجاء في هذه الرواية انحسم المشكل وكان كوستير هو المخترع لفن الطباعة ولكن قد وجدت هذه الرواية معارضين كثيرين قالوا انه لايمكن الاخذ بقول كتب بعد موت كوستير بمائة وثمانية وعشرين عاما ولم يذكر هذا الاسم لاول مرة الا بعد هذا الزمن الطويل وفي ذلك مايدعو للشك والارتياب وقالوا أيضاً ان جان فوست ما كان يمكنه في الوقت الوجيز وهو مدة تغيب زملائه أن يأخذ كل العدد

والحروف التى يتمكن بواسطتها أن ينشئ مطبعة فضلا عن أنه لاتوجد سيرة لهذه السرقة المهمة في المحفوظات القضائية والذي يؤخذ من كتاب أدريان ان اختراعات كوستير حصلت مابين سنتى ١٤٢٦ و١٤٤٠

هذا وقد اكتشف فى سنة ١٧٩٠ بمدينة اڤينيون من اعمال فرنسا عقود يؤخذ منها ان صائغاً من مدينة (پراج) أتى هذه المدينة في سنة ١٤٤٤ وعلم أحد الاسرائيليين المدعو « داڤين » علم الطباعة وقد زاد هذا الاكتشاف هذه المسئلة اشكالا على اشكال وتعقيداً على تعقيد

وقبل الحكم في هذه القضية يجب علينا أن نراجع الشهادات التاريخية والحق يقال انها فى الغالب تدل على ان اختراع فن الطباعة قد بدىء فى بلاد هولاندا فان تاريخ كولونيا المطبوع في سنة ١٤٩٩ مذكور فيه أن هذا الفن نشأ هناك والى هذا الرأى أيضاً ذهب المؤلف « ماريا انجلو » و « چان ڤان زويرن » و « كورنهيرت » وغيرهم من المؤلفين الذين لاحاجة لذكر أسمائهم

وتوجد شهادات أيضاً فى صالح جوتنبرج منها شهادة (شيفر) في سنة ١٤٦٨ الذى يقول بأن أول من طبع هو جوتنبرج وفوست ثم شهادة ألوي چيرنج وباقى أصحاب مطابع باريس فى سنة ١٤٧٢ وكذلك شهادة « باليروس » وشهادة شيفر في كتاب قدمه للامبراطور مكميلان في سنة ١٥٠٥ قال فيه ان فن الطباعة اخترعه جوتنبرج فى باريس سنة ١٤٥٠

وقد كثرت الشهادات في صالح جوتنبرج فى القرن السادس عشر وما بعده ولكن لاحاجة لذكرها لانها جاءت متأخرة

قلنا فيما سبق انه لاجل الوصول الى معرفة مخترع فن الطبع قد اتبع العلماء طريقتين احداهما هي الرجوع الى الشهادات التاريخية والاخرى مراجعة